(٢٩)

على هامش الإسراء

العدد (٩١) رجب (١٣٩٢هـ) أغسطس (١٩٧٢م)

عندما يتدبر التالي سورة الجمعة يرى في آياتها منعة الأمة العربية، والحكمة التي من أجلها ولدت في التاريخ!

ولك أن تسأل: ما علاقة أمة العرب بسورة الجمعة؟ وقد جرى في نفسي هذا التساؤل قبل ان أعلم أن يوم الجمعة كان يسمى في الجاهلية «يوم العروبة» ثم غلب عليه عنوان الشعيرة التي استحدثها الإسلام، والتي لم يكن العرب من قبل يحتشدون لها، أو يلتقون في عيدها!

ومعروف أن النبي ﷺ لم يصل الجمعة في مكة، وإنما صلاها بعدما قدم المدينة، فهل صليت في المدينة قبل الهجرة النبوية إليها؟

يبدو أن ذلك قد وقع، فقد روى عبدالرزاق في مسنده قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها النبي ﷺ، وقبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار: إن لليهود يوما يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلم فلنجعل يوما نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلي فيه، فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم وقد روي ذلك الحديث من طرق أخرى صحيحة.

فكأن سورة الجمعة هي سورة العروبة! فلننظر بعد هذه التقدمة إلى السورة نفسها.

لقد بدأت بتسبيح الله الملك القدوس العزيز الحكيم، والله ولي المنة والفضل، وأهل التقوى والمغفرة، وقيم السموات والأرض ومن فيهن.

ومن حكمة الله الماضية إلى يوم الدين أن يمنح اصطفاءه من شاء من الأفراد والأجناس ليكونوا مجلى رحمته، ومظهر نعمائه.

وفي الآية الثانية من هذه السورة، وبعد ثناء الرحمن على ذاته، ذكر- تبارك اسمه- أنه اختار العرب ليحملوا رسالته الخاتمة إلى خلقه ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (**الجمعة: ٢**).

وقوام هذا الاختيار ثلاثة معان بارزة:

- الأول تلاوة آيات الله، فإن أهل الكتاب أخفوا كثيرا منها، وعبثوا بمعالم الوحي حتى التبس الحق بالباطل، وتحول الدين من أفواههم إلى سقام للعقول والضمائر بدل أن يكون شفاء لما في الصدور، واستنارة لذوي الألباب.

  لكن النبي الخاتم تلا على أمته آيات الله كاملة غير منقوصة، مستقيمة لا عوج فيها، وأصبح العرب من بعده أمناء الله على هداياته، وفي أيديهم وحدها الصحائف التي لا ترقى إليها ريبة، ولا تلحقها آفة.

- وتلاوة الحق يتبعها التأثر به، والارتفاع إلى مستواه سيرة وسريرة، وذلك معنى التزكية، وقد ربى محمد عليه الصلاة والسلام جيلا من الناس له فضل أدب وتقوى أهله لقيادة العالم عن جدارة لا عن دعوى، والمتأمل في مسالك هؤلاء الأميين من العرب يعجب لإدمانهم العبادة، وحبهم الجهاد، وغيرتهم على الحق، ونفورهم من الدنايا.

  إن هذه الأمة الجديدة التزمت نهجا في التربية النفسية والاجتماعية أعز الإيمان وأعلى قدره!

- والمدد العقلي لهذه الرفعة الخلقية والسياسية نبع من علوم الكتاب والسنة، ومدارسة ما أودع الله فيها من حكمة بالغة.. ثم إن علوم الدين عندنا تتسع دائرتها لتشمل الكون كله، أي لتشمل كل ما يدل على الله، ويكشف عن جلاله وعظمته. ومن هنا كانت الحضارة الإسلامية تستند

إلى الوحي الحق، وما ينبعث عن هذا الوحي من علم وأدب.

وذلك ما نهضت به الأمة العربية فأضاءت ظلمات التاريخ، وصححت مسيرة الحياة. وذاك ما أسداه محمد للناس وأولهم قومه ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (**الجمعة: ٢**) لكن عهد العرب بالنبوات بعيد، فإن علم «الكتاب» عرف بقوم آخرين تخصصوا فيه وتوفروا عليه، أما العرب أنفسهم فقد ألفوا الأمية وألفتهم، حتى أصبح اسم «الأميين» علما عليهم.

فأنى لهم قياد العالم في هذا المجال، وهؤلاء، بنو إسرائيل، قد احتكروا النبوات دهرا طويلا، حتى ظنوا أنفسهم همزة الوصل بين الأرض والسماء، وتسموا بالشعب المختار، إشارة إلى هذه المكانة العتيدة؟

هنا يرد قوله تعالى في سورة «العروبة»: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (**الجمعة: ٤**).

لكن الفضل الإلهي لا يتنزل على من لا يترشح له، ولا ينسحب من أمة دون سبب واضح! فلم عزل الله اليهود وأحل مكانهم العرب؟

وبدأت السورة تجيب على هذا التساؤل ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (**الجمعة: ٥**).

إنك لا تأمن على تأديب ولدك معلما سيئ الأخلاق رديء الطبائع! فكيف يكل الله تربية العالمين لشعب قاسي القلب، مظلم السريرة، جامح الشهوات؟

لقد عزل اليهود عن مكانتهم القديمة لأنهم برذائلهم ومعاصيهم هبطوا دونها.. إن صلتهم بالوحي الإلهي تشبه صلة الدابة بما تحمل من كتب.

وما داموا لم يستفيدوا هم أنفسهم منها فكيف يفيدون غيرهم؟

ومن ثم جردوا من أمجادهم الأولى وقلد العرب هذه الأمجاد، فالعرب-

بابتعاث محمد منهم- أصبحوا الشعب المختار الجديد المكلف بحمل أمانات الوحي المؤتمن على هدايات الله!

ومضت سورة «الجمعة» أو سورة «العروبة» تسرد العيوب الجسيمة التي فشت بين اليهود فأزلتهم عما كانوا فيه من فضل رفيع.

إن موالاة الله تقتضي حتما البذل فيه، والتضحية من أجله، وإيثار ما عنده على الدنيا وما فيها.

وموالاة الله تجعل ذويها يحبون الآخرة أكثر مما يحب غيرهم الدنيا، وتطهرهم تطهيرا من الجبن والإخلاد إلى الأرض.

ولكن اليهود بلغوا في حب المال حد الشره، وفي حب الحياة حد التشبث بها والحرص عليها،

وقد أخذت السورة الكريمة تقرعهم على هذا الخلال ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ...﴾ (**الجمعة**: ٦، ٧) الآيات.

إن الأمة العربية لما اختارها الله لحمل رسالته الخاتمة كانت أنقى جوهرا، وأعمق أثرا، من بني إسرائيل!

ويبدو أن العرب- حتى في جاهليتهم الأولى- كانوا يحسون فتك الأمراض النفسية والاجتماعية بأهل الكتاب المجاورين لهم، وأن هؤلاء الكتابيين يفقدون الصلاحية المفروضة فيمن يتصل بالوحي ويتحدث عنه!

وتأمل قوله تعالى وهو يستحث العرب على الإيمان ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝١٥٦ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ (**الأنعام**: ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧).

إن أولئك الأميين لا يقولون ذلك إلا لأنهم احتقروا أهل الكتاب، واكتشفوا في بواطنهم وظواهرهم ما يسوء.

والواقع أن التدين الفاسد لعنة على الحياة، وأن تحول الدين إلى كهانة واحتراف واحتكار يخلق طائفة من المرضى المستكبرين أو الموجهين المنخورين، يفسدون في الأرض ولا يصلحون، تتأخر بهم الحياة ولا تتقدم، وتشقى بهم ولا تسعد.

من أجل ذلك اصطفى الله العرب بعدما آتاهم رشدهم، وأقام عوجهم، فخرجوا على الناس وهم أسلم فطرة وأهدى سبيلا.

فكان انسياحهم في الأرض عجبا وكانت بركتهم على الحياة نامية، وكانت ضرباتهم للباطل حاسمة شافية، وما ندري أي درك كانت الدنيا جمعاء سوف تهوي إليه لو لم ينطلق العرب شرقا وغربا بهذا الدين الحنيف..

وفي الموازنة بين الأمة الجديدة، حاملة الرسالة الخاتمة، وبين أهل الكتاب الأوائل يقول الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (**آل عمران**: ١١٠).

والأمم تصلح للحياة والسيادة بمقدار كثرة الخير وقلة الشر فيها.

إن مادة الشر يستحيل أن تنحسم من بين الناس ولو كان الأنبياء رعاتهم ولكن الأمم إذا توارى الانحراف في مساربها وشعر فاعلوه بنكره، واستعلن البر في أرجائها، وشعر فاعلوه بمجده كانت أجدر بالبقاء، وأحق برعاية الله.

أما إذا قل الأخيار، وبرز الفجار، فإن البلاء يعم، والانكسار يحيق، ما يغني في دفعه صلاح نادر وتقوى ضئيلة!

والأمر بالمعروف يجيء إثر الإحساس بحقه في الظهور والسيادة، والنهي عن المنكر يجيء إثر الإحساس بضرورة استخذائه واستخفائه، وهذا وذاك

يلدهما الإيمان النابض بالقدرة والنشاط،

وقد كان ذلك الإيمان سمة الأمة الفتية الناشئة من قلب الصحراء.

أما بقايا أهل الكتاب فإن العفن الفكري أو النفسي كان ضاربا في أحوالهم وأعمالهم.

وربما اصطلحت ضمائرهم مع المنكر فأساغته، وتراخت عن المعروف فتركته ينسحق تحت أقدام الطغاة والفساق.

كان العالم- والحالة هذه- فقيرا إلى نجدة تسعف الحق المهزوم، والشر المتبجح، وذلك ما فعله أبناء القرآن الكريم الذين نفخ فيهم محمد من روحه وتعهدهم بحكمته!

وفي سورة «الجمعة»، أو سورة «العروبة»، نرى أن الله ذكر فضله على العرب بهذه الرسالة فقال ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ (**الجمعة: ٤**).

ثم شرع بذكر مآسي بني إسرائيل وغدرهم بما أخذ عليهم من عهود، أما في سورة آل عمران فإن الله جل شأنه ذكر أولا انحراف اليهود وفسقهم عن أمر الله، ثم أعلن عزله لهم، ونزع الملك منهم، واختيار العرب دونهم لقيادة العالم.

فقال أولا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (**آل عمران: ٢٣**).

وبعد أن رفض هذا السلوك، وبنى عليه طرد أصحابه وجه الخطاب إلى نبيه محمد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(**آل عمران: ٢٦**) وظاهر من السياق أن ذلك في إيثار محمد وأمته العربية على بني إسرائيل! قد نقول: ما علاقة هذا كله بقصة الإسراء؟ والجواب أن ليلة الإسراء كانت تقريرا عمليا للحقائق التي أبرزناها

من سورة الجمعة وغيرها، قلنا في كتابنا «فقه السيرة»: لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم، فقد ظلت النبوات دهورا طوالا وهي وقف على بني إسرائيل، ظل بيت المقدس مهبط الوحي، ومشرق أنواره على الأرض، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار.. فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء، حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالا بالقيادة الروحية في العالم، من أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية «إسرائيل» إلى ذرية «إسماعيل».

وقد كان غضب اليهود مشتعلا لهذا التحول، مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾ (**البقرة: ٩٠**).

لكن إرادة الله مضت، وحملت الأمة الجديدة رسالتها، وورث النبي العربي تعاليم: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها فكان من وصل الحاضر بالماضي، وإدماج الكل في حقيقة واحدة، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام، وأن ينتقل إليه الرسول في إسرائه فيكون هذا الانتقال احتراما للإيمان الذي درج- قديما- في رحابه.. ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة.

إن النبوات يصدق بعضها بعضا، ويمهد السابق منها للاحق، وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بني إسرائيل بذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (**آل عمران: ٨١**).

وفي السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى فكانت هذه الإمامة إقرارا مبينا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، أخذت تمامها على يد «محمد» بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين، والكشف عن منزلة محمد ﷺ ودينه ليس مدحا يساق في حفل تكريم، بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية ومنذ تولت السماء إرشاد الأرض، ولكنه جاء في إبانه المناسب.

لماذا سردت هذا القصص الغابر؟ إنه ليس سرد تاريخ مضى، وخبر كان.. إنه تعريف أمة تائهة بحقيقتها، ورسالتها، وقدرها المكتوب، وحسابها الدقيق!

إن العرب ينبغي أن يعرفوا من هم، وبم أوثروا، وما المطلوب منهم لليوم الحاضر والغد القريب.

وسورة الإسراء التي حكت في الآية الأولى وحدها خلاصة القصة، ثم تتابعت آياتها تستعرض الحكم، وتسوق النذر.. هذه السورة أكدت للعرب مثلما أكدت لغيرهم أن الله يعامل شتى الأجناس بقانون موحد لا مكان فيه لمحاباة أو فوضى.

فمن تطلع إلى الدنيا وحدها حبسه الله في نطاقها ورمى إليه- جل شأنه- بما يريد منها، أما الآخرة فلا بد لكسبها من شروط ثلاثة:

- أن تكون إليها الوجهة.
- أن يقترن الاتجاه بالسعي الجاد.
- أن يقترن السعي بالإيمان الخالص.

وفي الفريقين معا يقول الله جل شأنه ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم

مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (**الإسراء**: ١٨، ١٩) هذا الحكم ينطبق على خلق الله أجمعين لا يستثنى منهم أحد.

فماذا يريد العرب من الله؟ إن غيرهم لما أهان وحيه نزعت منه الراية، وأهين في الأرض والسماء، فهل يريدون أن يتنكروا لوحي الله لديهم، ومواريثه بينهم، ثم يتجاوز عنهم، ويبسط يده عليهم بالخير والنصر

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (**الجاثية**: ٢١).

ونعود إلى خواتيم سورة الجمعة أو سورة «العروبة»، لنرى فيها السعي إلى ذكر الله وإقام الصلاة، فإذا وفينا بحق الله انتشرنا في الأرض لننال من خيرها ما يعيننا على أسباب الفلاح.

إن الدين والدنيا قد اجتمعا عندنا في قرن، واتسقا في غاية

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (**الجمعة**: ١٠).